

على من نشر السيف؟

د. عبد الغني عماد

اما طروحات التطرف الديني والتعصب الاعمى فهي تنتمي لفضاء فكري يحمل موروثات غير اسلامية، فتلك التأويلات المتفرعة التي تدعو للمفاضلة والمفاصلة بين الناس على اساس الانتماء الديني، ووفق تفسيرات محددة لهذا الانتماء تنتمي الى فكر القرون الوسطى ومفاهيم محاكم التفتيش التي شهدتها عصور الظلام في اوروبا.

ان طروحات التطرف الديني لا تعبر عن المسار الحضاري العام للتاريخ الاسلامي، ولا تعبر عن اصاله أو اصولية النص الاسلامي القرآني. وليس هناك دليل اصدق من بقاء الاقليات في العالم الاسلامي التي استطاعت ان تستعصي بكل ثقافاتنا وخصائصها على الذوبان. وقل ان تجد مديفة في هذا العالم الاسلامي ليس فيها هذا التنوع المتميز، وإذا كان يحلو للبعض ان يبعث بعض المفاهيم الخاطئة الى الحياة من جديد. فيكفي القول ان هذه اصواتاً تقبع خارج الزمان، يعنفها قلة، ولا تخلو أية أمة من امثالها يكفي ان عالمنا الاسلامي لم يشهد محاكم التفتيش التي شهدتها اوروبا، والتي لم تسمح لآخر المسيحي "المختلف مذهبياً" بالوجود على قيد الحياة وحكمت عليه بالموت حرقاً في بعض المراحل، فلنا ان ننصوّر كيف كان الأمر حين كانت تقع أيديهم على "الآخر" المسلم. لذلك كان الاستئصال والتطهير الديني والعرقى فلسفة تجد جذورها في القضاء التاريخي للحضارة الغربية ولا مكان لها في حضارتنا العربية الاسلامية، ولنا بعد هذا ان نتساءل ليست بقايا هذه التربية والثقافة الاستبعادية والاستئصالية موجودة في العقل الغربي اللاواعي، وهي تعود اليوم لتظهر ملامحها تحت شعارات مغلفة بالديموقراطية والمدنية وحقوق الانسان؟ ليست نظرية صدام الحضارات تعبيراً عن هذا النهج الذي يقطع الطريق على حوار الحضارات وتكاملها؟ اليس ما يجري اليوم هو اقرب إلى منطق صدام الجهالات منه إلى صدام الحضارات؟



بالحريات الدينية، حيث كانت الناس على دين ملوكها. هذا الفهم الحضاري يختلف عن التفسير الحزبي الاسلامي الذي يطرحه بعض المتطرفين والذي يعتبر ان علة القتال والجهاد هي الكفر والشرك. هذه الاشكالية يتصدى لها بتحليل عميق الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ويخلص بعد مناقشة مسهبة يحشد فيها علمه الواسع وحججه المنطقية بالاضافة الى النصوص الشرعية، الى ان علة الجهاد القتالي هي درء "الحراية"، وهذا ما توصل اليه جمهور المسلمين وفقهاؤهم فاختلف الدين وحده ليس مبرراً لاعلان الجهاد القتالي. ودليلهم على ذلك آيات عديدة منها: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعدوا ان الله لا يحب المعتدين" ويقرر البوطي "ان الكفر يعالج بالدعوة والتبليغ والحوار وأن الحراية تعالج بالقتال. وهذا ما ذهب اليه ايضا الامام شمس الدين الذي يقول: "الجهاد الذي هو ركن من اركان الاسلام، هو من طبيعة دفاعية محضة، ان الذي يدعو الى القتال هو الحراية.. وهذا يعني ان الكافر المحض اذا لم يكن محارباً، ولم يعلق عداؤه، ولم يكن معتدياً، لا يوجد اي سبب يمنع معاشته ومعاملته بالحسنى على اساس عدم العدوان من جهة ومبدأ "البر" الذي ورد في سورة المتحنة السابق ذكرها.

☆ ويستنكر كل محاولة

للاكراه: "أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" ويطالب للمؤمنين أن يتركوا الناس يتحملون مسؤوليتهم: "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" ويؤكد على البدا- القاعدة "لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي" و"لا" هنا ليست ناهية بل نافية لامكانية اكراه أحد على الايمان.

☆ ويعتبر ان العدل حق لكل

الناس "واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل". العدل ان هو فريضة وأمر الهي كي يقام بين كل الناس، مسلمين وغير مسلمين، بل مع غير المسلمين مطلوب أكثر من العدل: "أن تبروهم وتقسطوا اليهم".

☆ أيضاً ليس المسلم مكلفاً ان

يحاسب احداً على كفر او ايمان: "وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا واليه المصير" (الشورى/ ١٥) فأمر الحساب الى الله: "فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب".

☆ يكرّم القرآن الانسان أيا كان

دينه أو جنسه أو لونه: "ولقد كرّمنا بني آدم" ويقرر ان اختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله: "ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة".

هذه الاحكام تشكل المنطلقات

الاساسية، التي ترسم العلاقة مع "الآخر" المختلف والتعديس، وهي احكام قرآنية ثابتة لا تدع مجالاً للالتباس او سوء الفهم لكن اشكالية الالتباس عند البعض ذات مصدر تاريخي، له علاقة بالتفسير والتأويل والتوظيف السياسي الذي تعرضت له النصوص في مراحل تاريخية بشتى، بحيث أخرجتها عن منطوقها العام.

إن ابرز ما تميز به الاسلام أنه

كفل للآخرين عدم الاقتناع به، وهو اعترف بالديانات الأخرى واعتبر المنتقمين اليها "أهل كتاب" في عصر لم يكن سائداً فيه الاعتراف

هذا السؤال كان مدار بحث

بين الفقهاء منذ بدايات الدعوة. وقد طرح بصيغ مختلفة:

- هل يقاتل غير المسلمين لمجرد

اختلافهم في الدين أم بسبب عدوانهم على المسلمين؟ واختار للاجابة على هذا السؤال فتوى معاصرة للشيخ الامام الأكبر محمود شلتوت والتي يقول فيها: ان الاسلام لا يجعل مجرد المخالفة في الدين سبباً يحمل على التقاطع بالتفريق وسلب الحريات والاخراج من الديار. وانما يجعل العداء الذي يدفع للخالفين الى الايذاء والفتنة، سبباً مانعاً من موالاتهم والامتزاج بهم والاعتماد عليهم. مستنداً الى الآية في سورة المتحنة: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم، ان الله يحب المقسطين". وهذا ما يذهب اليه أيضاً الامام الراحل محمد مهدي شمس الدين الذي يعتبر ان "الاغيار" في العقيدة لهم مكانهم الطبيعي وليس مكانهم القرون بالمنة والاحسان.

لقد تضمنت نصوص القرآن

الكريم قواعد محددة للتعامل مع غير المسلمين. ومن ابرز هذه القواعد:

☆ النهي عن استخدام العنف

والقهر في الدعوة والهداية الا في حالة رد العدوان ورفع الظلم: "وجادلهم بالتي هي أحسن" ونهى عن المقاتلة: "فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً".

☆ الاقرار بان مشروعية

الاختلاف سنة الله في خلقه "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة". ولا معنى للحرية بلا اختيار، ولا معنى للمسؤولية بدون حرية: "إننا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً" بل يصل التوجيه القرآني للرسول ومن تبعه الى القول: "لست عليهم بمسيطر"، وايضاً "وما أنت عليهم بجبار" ويحدد السبل الى الهداية "وإن عليك إلا البلاغ".